

الحالة الطبيعية عند: "جان جاك روسو"

The state of nature at Jean Jacques Rousseau

برقاي جمال¹، طاهير رياض²

¹ جامعة الجزائر2 أبو القاسم سعد الله (الجزائر)،

² جامعة قاصدي مرباح ورقلة (الجزائر)

تاريخ الاستلام: 2021/08/30 تاريخ القبول: 2021/09/05 تاريخ النشر: 2021/10/07

ملخص:

نود من خلال هذه الدراسة تسليط الضوء على واحد من أهم فلاسفة العقد الاجتماعي: حيث يتحدث روسو في مؤلفاته عن الحالة الطبيعية لنقد الحضارة الغربية والمجتمع السياسي الفاسد والتقدم العلمي الذي لم يجلب السعادة للإنسان الحديث في القرن الثامن عشر.

ويصف لنا روسو الإنسان الطبيعي في الحالة الطبيعية بأنه كان يعيش في وئام وانسجام مع الطبيعة. قبل وجود المجتمع السياسي الفاسد وظهور الملكية الفردية. كان يعيش حياة سعيدة ويتمتع بحقوقه الطبيعية وكان حرية طبيعية. لكن كل هذا تغير تغيرا جذريا بسبب بعض الأحداث المفاجئة التي حدثت مثل ظهور الملكية الفردية وظهور التفاوت بين الناس وتأسيس المجتمع السياسي الفاسد وظهور الإنسان التاريخي والذي أصبح مضطهدا من طرف المؤسسات التي اخترعها وأصبح يعيش في اغتراب. وأصبح مكبل في أغلال بسبب الملكية الفردية التي يعتبرها روسو شرا. كانت هناك حروب دموية من أجل من يمتلك أكثر ويحصل على الأراضي الواسعة لكي يستغل أقرانه من البشر ويسيطر عليهم.

كلمات مفتاحية: الحالة الطبيعية، الإنسان الطبيعي، الحقوق الطبيعية، الملكية الفردية، التفاوت بين الناس.

Abstract:

Through this study we would like to shed light on one of the most important philosophers of the social contract; who is Jean Jacques Rousseau and who speaks of the state of nature to criticize western civilization and the corrupting state and scientific development that did not bring happiness to modern man in the 18th century. He describes to us Man in the state of nature who lived in harmony with nature before the creation of private property and before living in society, he had natural rights. But all this did not last because of an event which changed the situation like the advent of private property and inequalities and the creation of the corrupt society and the advent of the historical man who became oppressed by these institutions and been in alienation: where you look, you see it chained and because of this private property which is evil according to Rousseau.

Keywords: state of nature; men of nature; natural rights ;private property ; inequalities against mens.

المؤلف المرسل: برقاي جمال، د.طاهير رياض.

1. مقدمة:

استعمل فلاسفة العقد الاجتماعي (هوبز.لوك.روسو) الحالة الطبيعية في نظرياتهم السياسية كوظيفة منهجية في إطار نظريات العقد الاجتماعي إما لتبرير الوضع السياسي القائم أو لإعطاء البديل وتغييره. فكل فيلسوف وصف حالة الطبيعة كما تتناسب مع نسقه الفلسفي لتحليل المجتمع والبنية السياسية لتلك البيئة الاجتماعية. وإن روسو استعمل الحالة الطبيعية في مؤلفاته لكي ينتقد التقدم والمجتمع السياسي الفاسد والذي كان نتاج الملكية الفردية والتفاوت الاصطناعي لأنه أدى إلى صراع واقتتال وحدثت هناك حروب طاحنة بين الناس

على من يملك أكثر ويسيطر على الآخرين واستغلالهم ومن ثمة استعبادهم :لأن ملكية الأراضي في البداية كانت مشاعة بين الناس. ففقد الإنسان حريته الطبيعية وطيبته وأصبح يعيش في اغتراب في ظل هذا المجتمع السياسي الفاسد .

وإن الحالة الطبيعية كانت حالة وئام حسب روسو. وكان الإنسان يعيش فيها حالة هنيئة يتمتع فيها بالحقوق الطبيعية وكانت لديه الحرية الطبيعية حيث كان هذا الإنسان يعيش حياة الرغد والحرية وكان يعيش حياة فطرية يتساوى فيها جميع الأفراد ، لا يعرف فيها إلا الغذاء والنوم والأثني وكان يتغذى مما تمنحه إياه الطبيعة حيث كان يأكل من ثمار الأشجار وكان يشرب من أول جدول يلقاه أمامه وكان ينام تحت هذه الأشجار التي يتغذى منها وكان لدى الإنسان غريزة الرأفة مع أقرانه من البشر. والشر الذي كان يخافه هو الجوع ومرض والموت والهلاك، وكانت لديه غريزة المحافظة على بقائه ووجوده وكانت لديه مخيلة والقدرة على الكمال حيث يرى روسو أن الإنسان الطبيعي خير بطبعه لا يحب أن يرى أقرانه يتألمون ولا يمكن له الاعتداء عليهم كما كان يرى ذلك هوبز، والذي كان يرى أن الحالة الطبيعية عنده هي حالة حرب الكل ضد الكل. وأن الإنسان كان يعيش في صراع وقلق وخوف مستمر من أجل الحفاظ على حياته لأنه كان يعيش في صراع دائم مع أقرانه، وأن القوة هي المبدأ الذي تركز عليه الحياة في هذا الطور وأن رغبات الإنسان الجامحة والأنانية هي التي أدت إلى ذلك حسب هوبز: حيث كان يرى هوبز أن الإنسان ذئب للإنسان ،وعلى عكس ذلك فإن روسو لم يكن يرى بأن الإنسان كان بحاجة إلى أقرانه من البشر لأنه كان يكفي نفسه بنفسه، وأن الطبيعة كانت تمدّه بالخيرات التي يحتاجها وكان يعيش في وئام وانسجام مع الطبيعة وأن الملكية كانت مشاعة في الحالة الطبيعية.

وتكمن أهمية وقيمة روسو الفلسفية البالغة : كمفكر وكمنظر وفيلسوف ناقد للحضارة الغربية في أنه طرح الإشكالية التالية : لماذا لم يحقق العلم

والتقدم والتطور التقني والحضارة السعادة للإنسان في القرن الثامن عشر، رغم كل هذا التطور العلمي الهائل والتقدم في الحضارة؟ وكان ذلك هو السبب الرئيسي الذي دفعنا إلى البحث في آراء هذا الفيلسوف الذي حاول أن يعيد الحضارة إلى سكتها الصحيحة وإعادة بناء مجتمع سياسي فاضل وجديد مبني على أطر وأسس جديدة عن طريق العقد الاجتماعي والذي يقوم على الرضا والترخيص والذي يعيش فيه إميل المواطن الصالح والذي هو إنسان صالح ومواطن صالح ويربى تربية طبيعية ويعيش في مجتمع جديد وفاضل. فاستعمل روسو الحالة الطبيعية كوظيفة منهجية في مؤلفاته لنقد الحضارة الغربية والمجتمع السياسي الفاسد.

2. الحالة الطبيعية عند لوك وهوبز.

1.2 الحالة الطبيعية أو حالة الحرب **state of war** عند "هوبز":

يرى "هوبز" أن الحالة الطبيعية أو حالة الحرب "**state of war**" كانت حالة نزاع وقتال وقلق مستمر بين أفراد متصارعين للحفاظ على أملاكهم وعلى حياتهم وكانت الحياة فيها قصيرة جدا وشحيحة وقذرة: حيث كان قلب الإنسان مليء بالخوف والقلق يصوب سلاحه دائما تجاه الآخرين رغبة في الدفاع عن نفسه وعن حياته. (المعطي، الفكر السياسي الغربي الحديث، 1993، صفحة 226)، ويرى "هوبز": أن الإنسان ليس كائن اجتماعي بطبعه كما يرى "أرسطو" وإنما الإنسان كائن فردي بطبعه، فلم تكن هناك فلاحة ولا ملاحه ولا زراعة وكل ما هناك إلا صراع وقتال، والعناصر الثابتة والوحيدة في هذه الحالة هي القوة والقتال والصراع المستمر من أجل البقاء نظرا لوجود غريزة حب البقاء في الإنسان والتي هي متأصلة ووجودها أصيل في الإنسان، وبأن الأفراد فيها كانوا عبارة عن ذرات متناثرة متناحرة ومتصارعة في تنافس وقتال مستمر.

ومن هنا يتضح أنه في الوقت الذي يعيش فيه الإنسان دون سلطة مشتركة تقيهم جميعا في الرهبة، يكونون في الحالة التي تسمى حربا، وهي: "حرب بين كل إنسان و

كل إنسان آخر". فان الحرب ليست المعركة فقط أو فعل القتال، بل هي فترة من الزمن تكون فيها إرادة التنازع معلومة بما فيه الكفاية " (هوبز، 2011، صفحة 135): وبالتالي فان فكرة الزمن يجب أخذها بعين الاعتبار في طبيعة الحرب، كما في طبيعة الجو. فكما أن طبيعة الجو السيئ لا تكمن في هطول الأمطار مرة أو مرتين، بل في ميل إلى هطول المطر لعدة أيام متواصلة، كذلك فإن طبيعة الحرب لا تقوم على القتال الفعلي وحده، بل أيضا على الاستعداد المعلوم لهذا القتال، طالما أنه لا يوجد ما يؤكد العكس. وكل زمن ماعدا ذلك هو زمن السلم. بالتالي فإن كل ما ينتج عن زمن الحرب، حيث أن كل إنسان عدو لكل إنسان" (هوبز، 2011، صفحة 135).

فهي إذن حالة حرب الكل ضد الكل فهي حالة صراع واقتتال مستمر من اجل المحافظة على الملكية والحياة وان الانسان كان يصوب سلاحه دائما نحو الآخرين والخوف هو الذي يدفعه الى ذلك. "و ينتج أيضا عن الزمن الذي يعيش فيه البشر دون أمان غير ما تؤمنه لهم قوتهم الخاصة وقدرتهم الخاصة على الابتكار. في حالة كهذه لا مكان للعمل، لأن ثماره لا تكون مضمونة، ونتيجة ذلك لا زراعة للأرض، لا ملاحه ولا استخدام للسلع التي قد تستورد بالبحر، ولا بناء ضخما، والمعرفة لسطح الأرض، ولا حساب للزمن، ولا آداب، ولا مجتمع، والأسوأ من هذا كله وجود خوف متواصل وخطر موت عنيف، وكون حياة الإنسان وحيدة بائسة بغیضة قاسية وقصيرة." (هوبز، 2011، صفحة 135) .

قد يبدو غريبا لمن يزن جيدا هذه الأمور، أن الطبيعة تفرق بين البشر وتجعلهم قادرين على الأذى واجتياح وتدمير بعضهم البعض. وقد يرغب بالتالي لأنه لا يثق بهذا الاستنتاج الذي ينطلق من الأهواء، في أن يتأكد من الأمر بالتجربة . " (هوبز، 2011، صفحة 135)، - فلندعه يتأمل نفسه :حين يقوم برحلة، فانه يتسلح، ويبحث عن الصحبة الجيدة، وحين يخلد إلى النوم فانه يقفل أبوابه. وحتى عندما يكون في بيته فإنه يغلق خزائنه. وهذا مع معرفته أن هناك قانونا وموظفين عامين مسلحين لينتقموا لأي أذى قد يلحق به، ما هي إذا نظرتة إلى أمثاله والآخرين حين يسافر مسلحا، والى مواطنيه حين يقفل أبوابه، والى أطفاله

وخدمه حين يغلق خزائنه ؟ ألا يتهم بأفعاله هذه الجنس البشري بقدر ما أتهمه أنا بكلماتي؟ لكن أيا منا لا يتهم بذلك الطبيعة البشرية . إن رغبات الإنسان وأهوائه الأخرى ليست في حد ذاتها خطايا، كذلك الأمر بالنسبة للأفعال التي تنتج عن تلك الأهواء، إلى أن يعرف قانونا يمنعها، وهذا ما لن يحصل قبل أن تسن القوانين، ولا يمكن أن يسن أي قانون إلى أن يتم الاتفاق على الشخص الذي سيسنّه.

وقد يعتقد بعضهم أنه لم يكن ثمة وجود لزمان أو لحالة حرب كهذه، وأنا أعتقد أن هذه الحالة لم تكن قط معممة في جميع أنحاء العالم، ولكن هناك أماكن عديدة حيث يعيش الناس هكذا الآن، وهكذا فإن الشعوب الوحشية في أماكن عديدة من أمريكا لا يملكون أي حكومة، باستثناء حكم العائلات الصغيرة، التي يعتمد الوفاق فيها على الشهوة الطبيعية، وهم يعيشون إلى اليوم بالطريقة الوحشية. ومهما يكن الأمر، يمكن إدراك طريقة الحياة حيث لا وجود لقوة مشتركة يخشاها الجميع من خلال طريقة الحياة التي يؤول إليها الذين كانوا يعيشون في ظل حكومة مسالمة حين يقعون في الحرب الأهلية. " (هوبز، 2011، صفحة 136) .

إن هوبز يرى أن الدولة هي التي تحد من مساوئ حالة الحرب وتقضي عليها، وهي التي تتضمن السلم والأمن الغير موجود في حالة الحرب، وتتضمن لهم بقائهم في هذه الحياة. "ولكن حتى لو لم يكن هناك زمن كان فيه الأفراد في حالة حرب بعضهم مع بعضهم الأخر غير أن الملوك وأصحاب السلطة السيادية في كل الأزمنة، بسبب استقلاليتهم، يغار بعضهم على البعض باستمرار ويكونون في حالة وفي وضعية المتصارعين، حيث يصوب احدهم سلاحه باتجاه الأخر ويحدجه بعينييه أي :- أنهم يضعون حصونهم وحاميتهم ومدافعهم على حدود ممالكهم، ويرسلون على الدوام الجواسيس إلى جيرانهم وهي وضعية حرب. ولكن بما أنهم بذلك يحمون رعاياهم، لا ينشأ من جراء ذلك البؤس الذي يرافق حرية الأفراد." (هوبز، 2011، صفحة 136) . وينتج أيضا عن حرب كل إنسان ضد كل إنسان آخر و حرب الكل ضد الكل، أن لاشيء يمكن أن يكون ظالما. وإن أفكار الصواب والخطاء، العدل والظلم، لا مكان لها هنا، حيث: لا سلطة مشتركة، ولا وجود

للقانون، وحيث لا قانون، لا ظلم. إن القوة والغش هما في الحرب الفضيلتان الرئيسيتان." (هوبز، 2011، صفحة 136). ولم يكن ثمة تمييز بين الصواب والخطأ لقد كان الانسان مدفوعا برغباته وشهواته ونزواته الكامنة فيه ولم يكن في الإمكان أن نقيس بمعيار ما أخلاقية الفعل او عدم أخلاقيته ، لان ذلك المعيار لم يكن قد وجد بعد . "وليس العدل والظلم من ملكات الجسد أو الفكر. ولو كانا كذلك لتوجدا في إنسان وحيد في العام :-تماما كحواسه و أهوائه، أنها صفات ترتبط بالبشر في مجتمع، وليس وحدهم. وينتج عن الحالة الطبيعية:- أنه لا ملكية ولا سلطة، ولا تمييز بين ما هولي وما هولاك، بل إن ملك كل إنسان هو فقط ما يستطيع الحصول عليه، طالما أنه قادر على الاحتفاظ به. هذا بالنسبة إلى الحالة السيئة التي وضع الإنسان فيها بمحض طبيعته، مع أن لديه إمكانية للخروج منها، وهي تكمن في جزء: منها في أهوائه والجزء الأخر في عقله . " (هوبز، 2011، صفحة 137).

ولم يكن ثمة تمييز بين ما هو عادل وبين ما هو ظالم فما دام القانون لم يوجد بعد فلا يمكن ان توجد العدالة هذا من ناحية.ومن ناحية أخرى ليست العدالة وليس الظلم من قدرات الانسان وملكاته مثل الإحساس والانفعال ومن ثم فليس ثمة عدالة طبيعية توجد في الفرد، وإنما توجد العدالة متى ارتبط الانسان بالآخرين عن طريق الدولة المشرعة للقانون." إن الأهواء التي تجعل الإنسان يميل إلى السلام هي :- الخوف من الموت، والرغبة في الأشياء الضرورية لحياة مريحة، والأمل بأن يحصل عليها بعمله. ويطرح العقل بنودا مناسبة للسلام قد يتوافق الناس عليها. هذه البنود هي ما يسمى أيضا بالقوانين الطبيعية. " (هوبز، 2011، صفحة 137)..

2.2 جون لوك والحالة الطبيعية :

صور "جون لوك" (1632- 1704) حالة الطبيعة على أنها حالة أمان وتعاون وأن الناس كانوا يعيشون أحرار متساوين في الحياة والحرية. يحكمهم قواعد القانون الطبيعي." (المعطي، الفكر السياسي الغربي، 1993، صفحة 255).

كما أشار إلى أن حالة الطبيعة لم تكن فوضى أو حالة صراع؛ لأن قانون الطبيعة ينظم العلاقة بين الناس: الأمر الذي دعا أن يكون كل إنسان هو الضابط لأفعاله ومنظّمها؛ كما أن إنسان الطبيعة هو من يمتلك ما يرد به عدوان الآخرين عليه. ويرى "لوك" أن حالة الطبيعة الأولى على أنها حالة سلام وطمأنينة وأمن يسود فيها حسن النية والمعونة المتبادلة والمحافظة المتبادلة على الذات. وكان الناس يعيشون أحرار متساوين لا يحكمهم إلا القانون الطبيعي الفطري. فالحالة الطبيعية سبقت العقد الاجتماعي. كما أنها تختلف على الحالة الطبيعية لدى:- "هوبز" فلم يرى "لوك" فيها: "حرب الجميع ضد الجميع" بل على العكس رأى أن هذه الحالة كانت تتميز بحرية تامة توجه العقل الإنساني، وتساعد على حفظ الحياة والممتلكات؛ كما كانت تتميز بالمساواة التي تشير إلى أن كافة الناس سواسية في الحقوق الطبيعية وليس لفرد أن يتميز بقدر منها أكبر من الآخرين.

ولم تكن حالة الطبيعة الأولى حالة غير اجتماعية إنما كانت فقط حالة غير سياسية؛ وسبب كونها حالة اجتماعية أن الناس فيها كانوا يتعاملون ويتعاونون على أساس القانون الطبيعي الفطري الذي يتيح للجميع حالة من الحرية والمساواة واحترام حقوق وحرّيات وممتلكات الآخرين. ورأى أن الناس ماداموا متساوين منذ الولادة فإنهم ولا بد أن يكونوا متساوين في الحقوق الطبيعية أيضا. حيث يقول: رايته: لم يكن في حالة الفطرة الطبيعية سلطة موجهة أو منفذة؛ كان الناس يتصرفون على أن واجهم هو حماية أنفسهم بقدر استطاعتهم ومعاينة المعتدين." (المعطي، الفكر السياسي الغربي، 1993، صفحة 258).

وكان على "جون لوك" أن يبرر: تحطيم الحكم المطلق بطريقة فلسفية ودينية ورد على "هوبز" وعلى "روبرت فيلمير": في كتابه السياسي الشهير: "مقالتان في الحكم المدني"- وفيه افترض افتراضا رئيسيا:- يتمثل في: الحالة الطبيعية: حيث رأى "لوك": "أن المجتمع المدني هو نتيجة لتلك الطبيعة (المرحلة الفطرية): ولهذا نجد "لوك" يستهل حديثه في المقال الثاني من كتابه:- "في الحكم المدني": بقوله:- "لكي ندرك طبيعة السلطة السياسية إدراكا صحيحا. ونستنبطها من مصدرها

الأصلي ينبغي لنا أن نفحص عن الوضع. الطبيعي الذي نجد البشر عليه." (لوك، 1959، صفحة 139).

وإن الحالة الطبيعية عند "لوك" تميزت بميزتين أساسيتين هما:- الحرية التامة والمساواة بين الناس. وإن "لوك" يتفق مع "هوكر": "في أن المساواة بين البشر من الأمور البديهية التي لا يعترضها الشك.

فالمساواة هي التي تجعل المحبة قائمة بين الناس (البشرية): ومنها أيضا تستنبط قواعد العدالة ويقول "لوك": في هذا الصدد: "وهي فريضة تبنى عليها واجبات الواحد منهم نحو الآخر؛ ويستنبط منها قواعد العدالة والمحبة الكبرى؛ ومثل هذا الحافز الطبيعي جعل البشر يدركون أن الواجب الذي يقضي عليهم بمحبة أقرانهم

لا يقل شأنًا على الواجب القاضي بمحبة ذواتهم." (لوك، 1959، صفحة 140)

ومن هنا يتفق "لوك" مع "هوبز" و "روسو" حيث يقول هذا الأخير: "ولما

جميعهم مولودين متساوين و أحرار" (روسو، صفحة 35). أما "هوبز" فحالة

الطبيعة عنده هي كلها حالة حرب و قتال: وتعد كذلك لأن حسبه الحرية والمساواة

المطلقة تؤديان بالناس إلى حالة القتال وحرب الجميع ضد الجميع؛ بينما "لوك"

فقد جعلها مرحلة سلام وطمأنينة: ذلك لأنه حتى لو كانت حالة الطبيعة: "حالة

حرية" إلا أنها ليست حالة إباحة بمعنى أن تلك الحرية ليست مطلقة: لأن هناك

قانون طبيعي يخضع له الجميع كما يحتكمون إلى العقل. - حيث يقول:"لوك" في

هذا الصدد:" إن الإنسان في هذا الطور يتمتع بحرية التصرف بشخصيته

وممتلكاته إلا أنه لا يتمتع بحرية القضاء على حياته بل حتى على حياة المخلوقات

التي يملكها." (لوك، 1959، صفحة 140) .

كما أن "لوك": - يرفض رفضا قاطعا وصريحا وجود العبودية بالطبيعة.

ويرى "لوك" أنها حتى إن وجدت في تاريخ البشرية فهي شيء مصطنع وتعسفي

مناف لسنة الطبيعة. ويعتقد "لوك": أن الحالة الطبيعية هي حالة اجتماعية؛ و

إنما ليست سياسية والدليل على ذلك:-" أن الناس كانوا فيها يتعاونون ويتعاملون

على أساس القانون الطبيعي." (لوك، 1959، صفحة 140) ، ولم تتميز الحالة

الطبيعية بأنها حالة فوضى وحرب كلية كما صورها: "هوبز" ذلك لأن حالة الحرب يمكن أن تكون علامة المجتمع المدني أكثر. ولا تميز فقط حالة "الطور الطبيعي الأول" وهذا ما نلاحظه فعلا في الواقع، وأن الحالة الطبيعية "تميزت باحترام الحقوق الطبيعية؛ وأهمها: - حق الحياة - حق الملكية - حق الحرية وأخيرا الاقتصاد. كما تميزت بوجود القانون الطبيعي الفطري. وأن "لوك" جعل الإنسان كائنا عاقلا وأخلاقيا فبواسطة خاصية العقل يستطيع المرء تجاوز وتجنب مختلف الأضرار التي قد تقع له مع بني جنسه. وأن هذه الحالة: - حسب "لوك" تحمل في طياتها إيجابيات ومزايا كما ذكرنا ذلك سابقا وخاصيتها الأساسية: - وجود الحقوق الطبيعية التي كان يتمتع بها الإنسان في هذه الحالة.

3.2 الحقوق الطبيعية عند لوك:

تتمثل الحقوق الطبيعية عند "لوك" أساسا في حق الحياة - وحق الحرية - وحق الملكية . " ويتمثل دورها في حماية الفرد من تجاوزات السلطة." (لوك، 1959، صفحة 141). وأن هذه الحقوق هي بعيدة كل البعد عن الزوال بمجرد نشأة السيادة والمجتمع المدني: - للعقد السياسي: - حيث تضل هذه الحقوق رغم ذلك كأصل الحريات ودعمها لها إضافة إلى أن المجتمع المدني لا يخلق الحق وإنما هذا الأخير حسب "لوك" وجد بالطبيعة فلا يمكن بأي حال من الأحوال أن تغصبه السلطة؛ وتتمثل هذه الحقوق الطبيعية في:

أ- حق الحياة:

لم يختلف "لوك" عن "هوبز" في تحديد هذا المفهوم وجعله أهم باعث في الأفعال الإنسانية حيث يرى "لوك" أن كل الناس يخافون من موت مفاجئ وأنهم كلهم مفظورين على حب البقاء وعلى الاستمرار في الحياة قدر الإمكان وبمقتضى ذلك يسعى الناس إلى الحفاظ على حياتهم بالعمل وتملك ضروريات الحياة: ويقول "لوك" في هذا الصدد: "فكل إمري مجبر على المحافظة على الذات." (لوك، 1959، صفحة 141). فلا يحق لأي شخص أن يلحق أذى بحياة شخص آخر. ولا أن يسيء إلى حرياته أو إلى صحته أو جسده أو أملاكه إلا في إطار الاقتصاد

من المجرم. كما أن سنة العقل: تؤكد على ضرورة الحفاظ على الحياة؛ وأن بقاء الإنسان واستمراره واجب: وحتى الحرية التي كان يتمتع بها في المرحلة الطبيعية لا تخول له حق القضاء على حياته وعلى حياة الآخرين؛ ولهذا يقول "لوك" "أن الغاية من قيام المجتمع السياسي المتحضر: هي حماية وحفظ ما يمتلكه الأفراد من حياة وحرية وملكية، ضد الأخطار الداخلية والخارجية." (لوك، 1959، صفحة 213) .

ب- حق الملكية:

هو من أهم الحقوق التي كان يتمتع بها الناس في الحالة الطبيعية: ولقد اعتبره "لوك" كحق مقدس: والدليل على ذلك أنه خصص له فصلا كاملا في المقالة الثانية من كتابه "في الحكم المدني. ومنذ البداية: يؤكد أن دليل العقل ودليل الوحي يؤيدان حق الإنسان في تملك وامتلاك خيرات الطبيعة: وفي هذا الصدد: يقول "لوك" : " فالأرض وكل ما عليها من المخلوقات الدنيا ملك مشترك بين الناس (البشر)." (لوك، 1959، صفحة 193). فالله أعطى للبشر تلك الأرض وزودهم بالعقل لكي ينتفعوا بها خير انتفاع لأنها أعطيت من أجل رفاهيتهم، وبقائهم فلكل فرد الحق في أن يحصل أسباب عيشه فيما تقدمه الطبيعة له. إن موارد الطبيعة هي حق للجميع على حد سواء؛ إلا أن الإنسان هو: صاحب أمره وسيد أفعاله ومالك لذاته وجهده في الحصول على الثروة الطبيعية وبالتالي كلما بذل الفرد جهده في الحصول على الثروة الطبيعية " أضفى على الثروة الطبيعية شيئا متفردا صادرا عن شخصه وبذلك حولها من ملكية شائعة إلى ملكية خاصة." (نصر، 1981، صفحة 79). وبالتالي كلما اختلط به جهد الفرد وأضاف إليه شيئا من ذاته فهو إذن ملك له بمعنى أن نتائج عمله يمكن إسناده إليه وحده، حيث يقول "لوك": " فكلما استطاع المرء أن يفلحه ويزرعه ويصلحه ويحصده وينتفع بثماره فهو ملك له." (لوك، 1959، صفحة 156) ، فالأساس الذي تقوم الملكية هو العمل فالتملك يؤسس شغل الإنسان وتحدده الطاقة الإستهلاكية؛ لأن السنة الطبيعية التي تكسبنا حق التملك؛ تقيد في نفس الوقت هذا التملك (الحق): - فلا يجوز لشخص معين أن يملك ما فاض أو زاد عن

حاجياته؛ فالله لم يخلق شيئاً لكي يفسده الإنسان ولا يحق له إلحاق الضرر بالآخرين من جراء التملك لأنه إن تجاوزت ملكيته حدود ضرورياته "فيكون عندها قد أساء إلى قانون الطبيعة العام و استحق العقاب." (لوك، 1959، صفحة 159).

ج- حق الحرية:

اختلف "لوك" عن "هوبز" فيما يتعلق بمفهوم الحرية حيث "لوك": - يرى " أن الحرية ليست تحرير الفرد من المعوقات الخارجية بل من كل قاعدة عدى قانون الطبيعة." (محمد، 1985، صفحة 140) .

وعلى هذا يحاول "لوك" أن يوضح معنى الحق في الحرية على أنه حق الإنسان في أن يفعل ما يشاء؛ طالما أن ذلك لا يتعارض مع الحقوق الطبيعية للغير؛ فالإنسان حر. لكن لا يعني ذلك إلحاقه الضرر بالغير فحرية محدودة بحرية الآخرين وغيره.

إن الحرية كحق تشترط على الإنسان أن يتصرف وفق عقله الذي وهبه الله له؛ فإذا انحرف عن هذه السنة؛ أصبحت تلك الحرية فوضى وبالتالي يصير الإنسان حيواناً يجلب الضرر للمجتمع وهذا ما يحيل إلى أن الحرية لا تعني أبداً التحرر من القيود والقوانين. بل بالعكس إذا انعدمت القوانين تنعدم الحرية لأنها عبارة عن تحرر من تعسف الآخرين و عدوانهم والحرية ليست كما يذهب " روبرت فيلمر" في تعريفه لها بأنها: "حرية امرئ أن يفعل ما يشاء." (لوك، 1959، صفحة 140). وأن للفرد حرية في الإستقلال بذاته وممتلكاته ضمن القوانين التي وضعت من أجله؛ أي يخضع لإرادته وحده هو وليس لإرادة شخص آخر مجبراً إنطلاقاً من هنا يرفض "لوك" "العبودية" التي يزعم "فيلمر" أننا نفتح أعيننا أمامها وعلى الحياة معاً. حيث يرى "لوك": " أن العبودية ليست لائقة بالإنسان لأنها ليست شيئاً طبيعياً، وإنما خطأ يرتكبه الإنسان ولهذا فهي ليست وراثية: - فأبناء العبيد يولدون مثل سائر الناس أحرار: فكل فرد يولد ومعه الحرية الكاملة كحق يجعله مستقلاً عن إرادة أي فرد آخر وسلطته، وهذا يتساوى فيه جميع الأفراد وليس لأحد سلطة على غيره. " (لوك، 1959، صفحة 140).

3. الحالة الطبيعية عند جان جاك روسو:

1.3. الحالة الطبيعية:

ذهب "جان جاك روسو" rousseau jean jacques "إلى أن حالة الطبيعة الأولى كانت هنيئة سعيدة سادها الخير والطمأنينة، وانتشرت فيها الفضيلة، وأن الإنسان كان مساويا لكل إنسان آخر إذ لم يكن هناك أدنى تمييز بين الإنسان وأخيه الإنسان ولم يكن هناك حاكم ولا محكوم. ولا متعلم ولا جاهل. ولا غني ولا فقير حيث كان كل إنسان مساوي تماما لكل إنسان آخر ولبقيّة أقرانه من الناس. ولم يكن الإنسان الأول في حاجة إلى ممارسة الكذب أو النفاق أو الرياء، إذن لماذا يمارس هذه الخصال مادام لا يوجد أي تفاوت أو تمايز بين الناس. حيث كان الإنسان الأول خيرا بطبعه ، وظاهرا شريفا وكانت حاجياته محدودة وموجودة في الطبيعة وما يكفي حاجياته ويزيد عن ذلك. (المعطي، 1993، صفحة 291). وأن الإنسان كان مطابقا في كل زمن كما عليه الآن: يمشي على رجلين ويستعمل يديه كما نستعمل نحن أيدينا اليوم. مجيلا أنظاره في جميع أنحاء الطبيعة. رافعا عيناه إلى العلاء يقيس بهما سعة السماء الممتدة الأطراف". (روسو، في أصل التفاوت بين الناس، 2011، صفحة 37). وإذا نظرنا إلى الإنسان الطبيعي كما خرج من يدي الطبيعة رأيناه حيوانا أقل قوة من بعض الحيوانات، وأقل خفة من بعضها الآخر ولكن إذا أخذنا بجميع ما فيه وجدناه أفضل وأنفع تكوينا منها كلها: ويقول روسو في هذا الصدد: "ها إني أراه قاعدا تحت شجرة بلوط؛ ساقيا عطشه من أول جدول ماء، واجدا سريرا لنومه عند جذع أول شجرة أمدته بوجبة طعام وهكذا تكون: -جميع حاجاته قد قضيت. وكان الإنسان الأول هانئا، سعيدا لم يعرف القيود، ولا الحواجز ولم يعيش في تلك الحالة حيث لم يكن يصطنع الرياء. وكان يتصرف بتلقائية وحرية؛ ولم يكن له مسكن واحد ثابت، ولا لغة؛ كانت صرخاته الغريزية تغنيه عن الألفاظ والكلمات. ولقد علمت الطبيعة الإنسان كل ما يريد أو

يمتلكه أو يستخدمه." (روسو، في أصل التفاوت بين الناس، 2011، صفحة 38). ولم يكن الانسان الأول محتاجا إلى معونة الآخرين، ولم يكن جبانا يرهب كل قوة حوله كما ذهب مونتيسكيو Montesquieu ولم يكن وحشا أنانيا يحارب الجميع كما ذهب إلى ذلك هوبز Thomas Hobbes. حيث يرى روسو: أن الخوف والحروب، والصراع والقتال والأنانية لم تظهر إلا في حالة المجتمع المدني، وذلك لأن الحياة البسيطة والمنعزلة والغريزية: التلقائية للإنسان الأول لا يمكن أن تتضمن هذه الشرور: فعندما دخل الإنسان معترك التاريخ مع ظهور الملكية الفردية والمجتمع السياسي الفاسد والإنسان التاريخي أصبح الإنسان فاسد أخلاقيا ومستغل ومقهور اقتصاديا سياسيا أينما تنظر تراه مكبل في أغلال اصطناعية صنعها هو بنفسه.

"فالإنسان الطبيعي لم تكن له علاقة مع أقرانه من البشر الآخرين؛ حتى ولم يكن بحاجة إلى معرفة أحد منهم شخصيا؛ وليس هو عرضة إلا القليل من الشهوات، إنه يكفي نفسه بنفسه؛ وليس له إلا العواطف والمدارك التي تتطلبها هذه الحالة؛ ولا ينظر إلا إلى ما يظنه مفيدا له. (كريسون، 1988، صفحة 80) وقد عزا إليه روسو غريزتين أساسيتين: - الغريزة الأولى:- تدفعه إلى المحافظة على وجوده، وإن الخيرات التي يعرفها في العالم هي: "الطعام والأنثى والنوم والراحة. أما الشرور الوحيدة التي كان يخافها هي الأمراض والموت." وكان الإنسان الطبيعي يعيش حياتا هيمية لا يعرف فيها إلا الأكل والنوم والأنثى وكان يتغذى مما تمدده له الطبيعة كان ينام تحت الشجرة ويشرب من أول جدول يلقاه أمامه. والغريزة الثانية هي استعداده للرحمة: وكره فطري لرؤية أبناء جنسه يتألمون وكان له مبدأ السخاء والسماح والإنسانية والرعاية حيث يتبع رجل الطبيعة إذن المثل القائل: "اعمل صالحك بأقل ضرر ممكن تسببه للغير"، وحينما يأكل، ويشبع الإنسان الطبيعي: "فهو في سلام مع الطبيعة كلها؛ وصديق

جميع أبناء جنسه و إنه صالح من طبيعته. شينان فقط يميزانه إذن: عن الحيوانات التي يعيش فيما بينها: أن له إرادة حرة بدلا من أن يكون أسيرا لغرائزه ، وإن هذه الإرادة هي التي تميزه من الحيوانات أكثر ما يميزه منها الفهم." (كريسون ا.، 1988، صفحة 81). والحالة الطبيعية أو الطور الطبيعي عند روسو إنما هو نموذج نظري سالب إيبستيبي خالص يستخدمه استخداما افتراضيا شرطيا، " لتفسير الطور المدني واستخدمه كمنهج رياضي فلسفي لتحليل نظريته في الفلسفة السياسية. وقد تكلم آخرون عن الحقوق الطبيعية فيما لكل واحد أن يحفظ ما يخصه، من غير أن يوضحوا ما يقصدون بكلمة "يخصه"، وأعطى آخرون في البداية سلطانا للأكثر قوة على الأكثر ضعفا فأوجبوا ولادة الحكومة حالا من غير أن يفكروا في الوقت الذي يجب انقضاؤه." (روسو، في أصل التفاوت بين الناس، 2011، صفحة 32). وإن كلمة السلطة والحكومة لم تكونا موجودتان آنذاك وإن الحاجة والضغط والرغبة هي التي أملتها على اكتسابها ونقلها إلى هذه الحالة. حيث يقول روسو في هذا الصدد: " قبل إمكان وجود معنى كلمتي للسلطان والحكومة بين البشر وأخير تكلم الجميع بلا انقطاع عن الاحتياج والطمع والضغط والرغبة والزهو فنقلوا إلى الحالة الطبيعية أفكارا اكتسبوها في المجتمع السياسي الفاسد، فتحدثوا عن الإنسان الطبيعي، ووصفوا الإنسان المدني، حتى إن لم يرد خاطر معظم كتابنا أن يضمنوا وجود الحالة الطبيعية لما يظهر من مطالعة الكتب المقدسة كون الإنسان الأول اخذ الله معارف" (روسو، في أصل التفاوت بين الناس، 2011، صفحة 32) و"تعاليم من فوره فلم يكن في هذه الحالة أبدا" (rousseau, discours sur linegalite parmi les hommes, 2011, p. 19).

"وإنه إذا ما اعتمدنا أسفار موسى التي يعد كل فيلسوف نصراني مدينا لها ، وجب إنكار وجود الناس في الحالة الطبيعية المحض حتى قبل الطوفان ما لم

يكونوا قد وقعوا فيها ثانية بفضل بعض الحوادث العجيبة . فهذا الرأي الغريب مما يورث الدفاع عنه ارتباكاً ويتعذر إثباته تماماً". (روسو، في أصل التفاوت بين الناس، 2011، صفحة 32)

" لنبدأ إذن بإزاحة جميع الوقائع التي هي لا تمت أبداً بصلة للمسألة. وأنه لا يجب أن نأخذ البحوث التي نخوض فيها بصدد موضوعنا في الحقائق التاريخية. بل من البراهين الافتراضية الشرطية الصالحة للإلقاء نور على طبيعة الأشياء والأمور أكثر من صلاحها لإثبات أصلها الحقيقي والمشابهة للبراهين التي يأتيها كل يوم طبيعيون حول تكوين العالم ويأمرنا الدين أن نعتقد. بان الله إذ أخرج الناس من الحالة الطبيعية فور الخلقة فإنهم يكونون متفاوتين لأنه أراد. إن يكونوا هكذا. " (روسو، في أصل التفاوت بين الناس، 2011، صفحة 32) . وإن روسو يرى أن الدين لا يمنعنا من أن نضع فرضيات مستنتجة من طبيعة الإنسان والكائنات التي تحيطه، وتعيش معه وعن الحالة التي يمكن أن يكون عليها الجنس البشري لو ترك لنفسه، وهذه هي المسألة التي يعرضها روسو: هنا حيث يقول في هذا الصدد: "غير أن الدين لا يمنعنا اليوم من وضع افتراضات مستنبطة من طبيعة الإنسان والموجودات المحطة به فقط . وذلك حول ما كان ما يمكن أن يكونه الجنس البشري لو بقي متروكا لنفسه. وهذه هي المسألة المعروضة علي . " (روسو، في أصل التفاوت بين الناس، 2011، صفحة 33).

وإن الحالة الطبيعية عند روسو هي حالة بدأ منها روسو فلسفته السياسة لكي يعطي لنا البديل للمجتمع السياسي الفاسد والمبني على التفاوت الاصطناعي والاستغلال والاستعباد والبديل للإنسان التاريخي المستغل اقتصاديا والفاسد سياسيا. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وهذا ما أرى درسه في هذه الرسالة، وبما أن موضوعي بهم الإنسان على العموم فإنني سأحاول انتحال لهجة تلائم جميع الأمم . (روسو، في أصل التفاوت بين الناس، 2011، صفحة 33) .

ويريد روسو أن يستخدم لهجة تلائم كل الأمم لكي يوصل أفكاره على طريقة الأساتذة الأثينيين القدامى. حيث يقول في هذا: " وإن شئت فقل بما أنني أنسى الأزمنة والأمكنة لكي لا أفكر في غير الناس الذين أحاطهم. فإنني افترض نفسي في مدرسة أئينا مكررا دروس أساتذتي متخذنا أمثال أفلاطون و اكرزینوقراط قضاة. والنوع البشري مستمعا . فيا أيها الإنسان من أي بلد شئت . ولتكن آراؤك كما أردت . واستمع :- فهذا هو تاريخك كما قرأته. لا في كتب أمثالك الذين هم أمثالك الذين هم كاذبون . -بل في الطبيعة التي لا تكذب إطلاقا. وكل ما يأتي من الطبيعة يكون صادقا . " (روسو، في أصل التفاوت بين الناس، 2011، صفحة 33).

يخاطب روسو هنا الإنسان دون النظر في انتمائه إلى أي بلد من البلدان، ودون النظر في انتمائه الفكري، ليعرض عليه تاريخ البشرية كما حدث، لا كما ترويه الكتب التاريخية الكاذبة وإن هذا التاريخ موجود في الطبيعة التي لا تكذب أبدا حسب روسو. حيث يقول في هذا الصدد : "ولن تجد ما هو كاذب غير ما أضعه عندي بلا قصد. والأزمنة التي أتكلم عنها بعيدة إلى الغاية . وما أكثر ما غيرت ما كنت عليه ولذلك فإن حياة نوعك هي التي أصفها لك وفق الصفات التي نلتها والتي استطاعت تربيتك وعادتك إفسادها. ولكن من غير أن تقدر على محوها. ويوجد كما أحس جيل يرغب الفرد أن يقف عنده. وأنت تبحث عن الجيل الذي تود وقوف نوعك عنده. وبما أنك ساخط على حالك الحاضرة لأسباب تنذر عاقبك التعيس بأعظم كدر، فإنك تريد القدرة على العودة إلى الوراء على ما يحتمل. فيجب أن يكون هذا الشعور ثناء على أجدادك الأولين، وانتقادا لمعاصريك وهؤلاء لمن يكتب لهم شقاء الحياة بعدك. " (روسو، في أصل التفاوت بين الناس، 2011، صفحة 33).

2.3 الانسان الطبيعي:

هو الإنسان الذي عاش في الحالة الطبيعية قبل ظهور المجتمع المدني ومؤسسات الدولة والمجتمع السياسي الفاسد والإنسان التاريخي، وكان الإنسان الطبيعي يتمتع بكل حقوقه الطبيعية في هذه الحالة الطبيعية، ويعيش الإنسان الطبيعي في انسجام ووثام مع الطبيعة والتي تمده بكل ما يحتاجه من خيرات. فإنسان الطبيعة لم يعد يمكننا معرفته تاريخياً لأنه تحول وتلاشى منذ ما قبل التاريخ .- ولكن التفكير يخول لنا تصور الخطوط العريضة والكبرى لما كان عليها حيث يصفه لنا روسو عارياً سادراً في الطبيعة والغابات :لا صناعة له، ولا نطق، ولا مسكن، ولا حروب ولا حاجة إلى أبناء جنسه ،ولا رغبة في السيطرة وأذي أي منهم .حتى ولا معرفة أي أحد منهم شخصياً .

ليس هو عرضة إلا لقليل من الشهوات. لا يحتاج إلا لتلبية حاجياته البيولوجية، والتي تضمن له بقاؤه والمتمثلة في الغذاء والنوم والأنثى، وكان يتمتع بالحرية الطبيعية، وإنه يكفي نفسه بنفسه. ولا ينظر إلا إلى ما كان يظنه مفيداً له. وإن الخيرات التي يعرفها في العالم هي : الطعام والأنثى والراحة .أما الشرور التي يخشاها فهي الجوع والمرض والموت . حيث كانت حاجياته بيولوجية محضة كان يحصل عليها من الطبيعة. فحينما يأكل ويشبع فهو في سلام مع الطبيعة كلها جمعاء. وصديق جميع بني جنسه، إنه صالح بطبيعته، وخير بطبعه وإن المجتمع هو الذي أفسده -وأنه قابل للاكتمال والتطور. وتدور الحيوانات في ذات الدائرة.- أما الإنسان فبإمكانه الاختراع إما لخيره أو لشره، لأن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يستطيع تطوير وسائل الأذى، من هذا الإمكان ينتج تقدمنا المشئوم مصدر جميع بلايانا، والحضارة التي أنتجها الإنسان بإيجابيتها وسلبياتها، وإن حالة الإنسان الطبيعية، هي أسعد حالاته جميعاً." (كريسون ا، 1988، صفحة 82). إن الشعور الأول بالألم بالنسبة للإنسان كان شعوره بوجوده، وكان يهتم بحفظ بقائه، وكانت منتجات الأرض تعطي له المعنويات الضرورية التي

يبتغيها ويشتهيها والغريزة كانت تدفعه إلى الاستفادة منها. وهذه هي حالة الإنسان في هذه الحالة الطبيعية حيث كان رؤوفا بغيره من البشر، وكان رحيمًا بهم لا يعتدي عليهم، حيث كان كائنًا خيرا بطبعه، وكان حرا يتمتع بحقوقه الطبيعية. وكان لم يتبادر إلى ذهنه أن تنتزع منه هذه الحقوق. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "ذلك شرط الإنسان لما كان ناشئًا، وتلك حياة حيوان لما كان بادئ ذي بدء، حبيس الإحساسات المحضّة، حيوان لا يكاد يستفيد من الهبات التي كانت الطبيعة تعرضها عليه. فما كان ليخطر على باله أن ينتزع منها شيئًا." (روسو، في أصل التفاوت بين الناس، 2009، صفحة 117). ولم ينته إليها ولم يتردد بعضهم في عزوهم إلى الإنسان في هذه الحال فكرة العادل وغير العادل، من غير أن يكتروا لإثبات كونه قد أخذ بهذه الفكرة وكونها نافعة له أيضا. "ولا يفرض القانون الطبيعي وجوده على الإنسان إلا بقدر ما أن هذا الأخير كائن عاقل وحر. فهو يخاطب الإنسان بصوت الطبيعة بالذات. وروسو لم ينطلق من هذه الأطروحة البديهية فينظره، يدعوا لتنحية الكتب جانبا للتأمل بأول أفعال النفس البشرية وابتسطها: "إذا ما جردنا (الكائن البشري) من سائر المواهب الخارقة للطبيعة التي استطاع الظفر بها ومن جميع الملكات التي يتمكن من اكتسابها إلا بعد طول ترق." (ف. فولغين، 2006، صفحة 212). وباختصار، إذا ما نظرنا إليه كما خرج من بين يدي الطبيعة لوجدنا فيه حيوانا اقل بأسا وقوة من بعض الحيوانات الأخرى، وأقل رشاقة وخفة من بعضها الآخر، وإنما أفضل الحيوانات تنظيما في التحليل الأخير: "إني لأراه يأكل حتى الشبع تحت سنديانة، ويشرب حتى الارتواء من أول جدول يصادفه، ويفرش الأرض عند جذع الشجرة التي أمنت له طعامه، وهكذا تكون حاجته قد أشبعت ثمة مبدآن يسبقان ظهور العقل عند الإنسان الطبيعي: غريزة البقاء والرفقة." (ف. فولغين، 2006، صفحة 212)

إن الانسان الطبيعي كان يعيش حياة طبيعية هنيئة. وكان يعيش في انسجام وتناغم ووثام مع الطبيعة، وكان يتمتع بحريته الطبيعية، وكان يعيش حياة بهيمية: لا يعرف فيها إلا الأكل والشرب والنوم والأنثى، كان يشرب من أول جدول مياه يقابله، وكان ينام تحت شجرة البلوط التي يأكل منها، وكان لا يخاف إلا الأمراض التي تصيبه، وكان يتمتع بغريزة الرأفة على أقرانه من البشر. كان لا يعرف التعاسة والشقاء والقلق الذي يعيشه الانسان المدني حيث كان سعيدا وهنيئا. "وتحتم غريزة البقاء على الإنسان أن يهتم برفاهيته ورغد عيشه، في حين تجعله الرأفة ينظر بعين الاستفضاع إلى آلام وموت كل كائن حي، وعلى الأخص أقرانه من البشر. من هذين المبدأين الأساسيين تنحدر قوانين الحق الطبيعي كافة. فأناية الإنسان الطبيعية، التي يوجهه العقل وتلطفها وتخفف من غلوها الرأفة، تجعله صالحا وفاضلا. إن الزعة إلى الحياة الاجتماعية غريبة عن الإنسان الطبيعي. فالمتوحشون يعيشون في حالة من العزلة ولتساورهم الحاجة إلى أمثالهم. وهم لا يجيدون النطق ولا يحسون بحاجة اليه. يعيشون شتاتا في الغابات، بين الحيوانات، بلا حرفة أو عمل، ويقفون من خيرات الأرض بخصوبتها الطبيعية." (ف. فولغين، 2006، صفحة 213)- حيث كانت الحياة هنيئة وكان الإنسان يعيش في انسجام و وثام مع الطبيعة، ويعيش مما تقدمه له الطبيعة وكان يقفون من ثمار الأشجار، وينام تحتها ويشرب من مياه الجداول والأنهار، وكانت حاجياته بيولوجية بحتة، ولم يكن بحاجة الى إقامة علاقات مع الآخرين، وكان كائنا طبيبا ووبريئا خيرا بطبعه. "ولما كانت تلبية هذه الحاجات أمرا ميسورا، فإن الإنسان البدائي يجهل البصيرة والفضول. إن مشاريعه المحدودة كروية الحسيرة، لا تتجاوز نهاية النهار. فهو يمقت كل العمل يتطلب دأب أو استمرارا. ومخيلته لا تصور له شيئا، وقلبه لا يطالبه بأمر، والحق أن الوظائف النفسية للإنسان البدائي هي في مستوى وظائف الحيوانات: إن الابتغاء، وعدم الابتغاء، الرغبة والخشية، هي الأفعال الأولى، وربما الوحيدة التي تصدر عن نفسه. فأهوأونا تحددها أما نزوات الطبيعة وأما معارفنا فنحن لا نرغب في الأشياء، أو نتوجس منها خيفة إلا بحكم الأفكار التي تكونت لدينا عنها. و بما أن الإنسان

الطبيعي محروم من كل معرفة، فإنه لا تساوره إلا أهواء بدائية، متوالدة عن نزوات طبيعية. فمن يعيش في الحالة الطبيعية، فلن يحتاج إلى أكثر من الغريزة. " (ف.فولغين، 2006، صفحة 213):- لأن الطبيعة كانت تمد للإنسان كل ما يحتاجه، حيث لم يكن مستقرا وثابتا في مكان واحد: حيث كانت كل الطبيعة منزلا له وكان ينام تحت الأشجار، كانت الأرض فراشا له والسماء سقفا له، وكان يعيش حياة بسيطة وطبيعية وهنيئة، وكان يعيش سائرا وحيدا في الطبيعة، وكان حر حرية طبيعية.

"وليس للإنسان الطبيعي من مسكن ثابت أو من أسرة: فالعلاقات بين الجنسين عابرة ومؤقتة، والأطفال ينفصلون عن أمهاتهم حال اقتدارهم على تأمين قوتهم بأنفسهم. ويردف "روسو" قائلا: إن البشر في الحالة الطبيعية ليسوا صالحين ولا طالحين، إذ لا تجمع بينهم أية علاقة أخلاقية لو واجبات مشتركة. لكنه يضيف أنه لا يوافق هوبز على قوله بأن الإنسان البدائي هو بطبيعته الخالصة شرير: لأنه لا يمتلك أي فكرة من الخير، وأنه فاسد وفاجر لأنه لا يعرف الفضيلة. فبما أن أهواء الإنسان البدائي محدودة، كما يقول روسو، فإن عددها ضئيل ونشاطها ضعيف. " (ف.فولغين، 2006، صفحة 213) وإن روسو يعارض هوبز في كون الحالة الطبيعية كانت حالة سلبية، وبأنها حالة حرب وقتال حيث يرى روسو أن هذه الحالة هي حالة ونام، وبأنها حالة ايجابية وبأن الإنسان ليس شريرا كما يرى ذلك هوبز.

"وهي علاوة على ذلك تجد ما يلجمها في الرأفة، ذلك الشعور المشترك بين الكائن البشري والحيوانات، فالآفة التي سبق ظهورها محاولات التفكير الأولى كافة، تلعب في الحالة الطبيعية دور القوانين والأخلاق والفضيلة. وهي إذ تختلف من حدة النزوات الأنانية. وتسهم في المحافظة على الجنس البشري برمته. فالمشاجرات بصدد إرضاء أنثى نادرة للغاية عند المتوحشين: فهم يعيشون في منعزل بعضهم البعض، والأرض من حولهم شاسعة تزيد عن حاجتهم إليها، والحب بالنسبة إليهم لا يتخطى حدود الحاجيات البيولوجية. ثم أنهم يجهلون التفاخر والخيلاء، ولا يميزون بينما هو خاصتهم، وما هو خاصة الآخرين ولا تصلبهم خلافاتهم إلى حد

سفك الدماء إلا فيما ندر. ولا يسعنا أن نتكلم، فيما يتعلق بالحالة الطبيعية، لآعن تربية، ولا عن تقدم: كانت الأجيال تتعاقب، لكن كان كل شيء يبقى على كما في الماضي، إذا كان على كل واحد ان ينطلق من جديد من نقطة الصفر.؛ (ف.فولغين، 2006، صفحة 214) حيث كان الانسان الطبيعي يعيش حياة هنيئة منعزلة لا تربطه علاقات مع الآخرين ولا يحتاج الى أقرانه من البشر ولم يكن في أي أدنى حاجة إلى إقامة علاقة مع أقرانه من البشر ولا الى مساعدتهم لأن الطبيعة أغنته بكل ما يحتاج في هذه الحياة الطبيعية الهنيئة .

"وقد تصرمت القرون تلو القرون في جلافة العصور الأولى وحتى ان شاخ النوع، كان الإنسان لا يزال طفلا. عاش البشر طيلة قرون على هذا المنوال وهم على جهل بالحياة في المجتمع، وبالملكية، وبالأسرة. ويكاد التباين بين البشر ان يكون معدوما في الحالة الطبيعية، كذلك التفاوت واللامساواة. وقد تميزت هذه الحالة بالاستقرار والاستمرار، إذ أن الطبيعة، على حد ادعاء روسو، لا تهتم كثيرا بتهيئة البشر للحياة الاجتماعية، وبتقريب الشقة فيما بينهم بواسطة حاجات مشتركة، وبمساعدتهم على ابتكار لغة أنفسهم. فحتى لو سلمنا بوجود حاجة إلى التآزر لدى البشر البدائيين، لصعب علينا ان نتصور كيف كانوا يلبون هذه الحاجة بدون وساطة اللغة. وما كان لغير الزمن، كما يقول روسو، ان يحمل البشر البدائيين التطلع إلى الخروج من حالتهم الأصلية التي كانوا يمضون في ظلها أيامهم في طمأنينة وبراءة." (ف.فولغين، 2006، صفحة 214). فالإنسان الطبيعي ليس اجتماعي بالطبع حسب روسو. فالحياة الطبيعية كانت حياة طمأنينة وحياة براءة وكان الإنسان فيه يعيش حياة بهيمية سهلة وبسيطة هنيئة وفي سعادة ليس لديه أي دافع لكي يقيم علاقات مع الآخرين، او التعرف عليهم والتعاون معهم لكن كان لدى الإنسان ملكة المخيلة والقدرة على التطور، وكان مهيبا للتقدم والتطور وتأسيس الحضارة والمجتمع السياسي الفاسد، الذي عكر حياته الهنيئة وأصبح مكبل يعيش في أغلال اصطناعية، وكانت هناك ظروف ساعدته على ذلك. ما كان هذا التحول والانعطاف في حياة البشرية ليتم لو لم يكن الإنسان بطبيعته أهلا للتقدم والتطور في مدارج الرق والحضارة. "وإن قدرة

الكائن البشري هذه، التي تكاد أن تكون غير محدودة، هي الشرط الذي لا غنى عنه لتطور البشرية اللاحق، لنمو معارفها وأخطائها وفضائلها ورذائلها بيد أن الملكات الفكرية، التي أعطيها للإنسان في الحالة الطبيعية، ما كان لها تنمو وترقى من تلقاء نفسها. بل كانت تحتاج، كما يقول روسو، إلى تضافر عدد من العلل الخارجية التي كان الإنسان سيبقى لولاها إلى أبد الأبدن أسيرا في شرطه البدائي. (ف. فولغين، 2006، صفحة 214).

4. خاتمة:

وخلاصة القول: إن الانسان الطبيعي كان سعيدا، وكان حر حرية طبيعية في الحالة الطبيعية. وكان بريئا وطيبا يعيش حياة طبيعية لا يعرف فيها إلا الأكل والنوم والأنثى، وكان يتمتع بحقوقه الطبيعية، وكان يعيش في وئام مع الطبيعة، وعندما ظهرت الملكية الفردية وعندما دخل معتزك التاريخ فقد حرته وتناغمه مع الطبيعة، وأصبح مكبل في أغلال اصطناعية فهو مكبل سياسيا ومستغل اقتصاديا، وفاسد أخلاقيا، فحدث له تغيير جذري وراديكالي، وفقد حرته وسعاده وخرج من حالة الوئام التي كان يعيشها في الطور الطبيعي، وأصبح يعيش حالة تعاسة وخوف، وقلق في المجتمع السياسي الفاسد، فالإنسان الطبيعي حسب روسو بريء وخير بطبعه لا ينبغي إيذاء أقرانه من البشر، وكان رؤوفا بهم، وكان يتألم لما يصيهم من أمراض لأنه كانت لديه ملكة الرأفة والشفقة. على عكس "هوبز" الذي يرى أن الانسان الطبيعي شرير بطبعه، وإنه كان في صراع وقتال مستمر مع أقرانه من البشر وأنه كان ذئبا لأخيه الانسان. ومع ظهور الملكية الفردية أصبح الانسان ينبغي أن يحصل على ملكية أكثر ويكسب أراضي واسعة وشاسعة، وأصبح ينبغي ان يسيطر على الآخرين وعلى أقرانه من البشر وإن هذا هو الذي سيؤدي الى الصراع بين الناس والاقتيال على من يملك الأراضي الشاسعة ووسائل الإنتاج كما يسميها ماركس ويسيطر على الآخرين ويستغلهم شر استغلال ويسطوا على أملاكهم ويستعبدهم .

5. قائمة المراجع:

1-المصادر باللغة الفرنسية:

- 1) Rousseau jean jacques : (2011) discours sur l'inégalité parmi les hommes .Edition Les Classiques De Philosophie. Hatier. paris .France .

2-المصادر والمراجع باللغة العربية:

- 1) هوبز، توماس ،الليفياتان (التنين)، (2011)، الأصول الطبيعية والسياسة لسلطة الدولة ، (الإصدار: الطبعة الأولى) ، (المترجمون: ، ديانا حبيب حرب ،بشرى صعب)، هيئة أبو ضبي للثقافة والتراث :كلمة ، أبو ضبي ، الإمارات العربية المتحدة.
- 2) علي عبد المعطي محمد ، (1993)، الفكر السياسي الغربي، (الإصدار د.ط) ، دارالمعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر.
- 3) لوك، جون ، (1959) ، في الحكم المدني، (المترجمون ماجد فاخري)، اللجنة الدولية لترجمة الروائع، بيروت لبنان .
- 4) روسو، جان جاك، في العقد الاجتماعي، ترجمة دوقان قرقوط ، دار القلم، بيروت.
- 5) نصر، عبد المعز، (1981)، في النظريات والنظم السياسية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، د.ط، بيروت، لبنان.
- 6) روسو، جان جاك، (2011)، في أصل التفاوت بين الناس، (الإصدار د.ط)، (عادل زعيتر المترجمون)، اللجنة الدولية لترجمة الروائع اليونسكو، دار العالم العربي، القاهرة، مصر.
- 7) روسو، جان جاك، (2009)، في أصل التفاوت بين الناس، (الإصدار ط.1)، (ترجمة :بولس غانم، التقديم :عبد العزيز لبيب. المترجمون)، المنظمة العربية للترجمة، بيروت لبنان.

- (8) كريسون ، أندري، (1988) ،روسو حياته فلسفته منتخبات، (الإصدار ط.4)،(نبيه صقر المترجمون)، دار منشورات عويدات، بيروت ،لبنان.
- (9) ف ، فولغين.(2006) ،فلسفة الأنوار، (ترجمة :عبودي، هنرييت،مراجعة: جورج طرابشي)، دار الطليعة للطباعة، بيروت، لبنان.